

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com


قلعة عنجر.

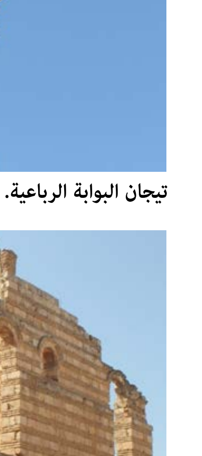
قلعة عنجر إحدى أكبر المدن الأموية تحرس معالم تاريخ دمشق والأندلس

قلعة عنجر الرابضة على سفح سلسلة جبال لبنان الشرقية وسط سهل البقاع، تشكل واحدة من اكبر المدن الاموية المتكاملة في الشرق، والوحيدة التي ما زالت تحتفظ ببنيتها التحتية بين كل المعالم الاموية في العالم، وتنفرد بكونها تعود الى حقبة تاريخية واحدة على عكس المواقع الاثرية التي تحمل تاريخا من الحقبات وتناوب الحضارات وتراكمها

قلعة عنجر بناها الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (705-715) ميلادية على مدخل وادي الحرير في منتصف الطريق بين بيروت ودمشق. انتصبت رمزا ومعلما راقيا في العمارة العربية، مع القصور التي شيدها خلفاء الامويين وامراؤهم في الصحراء الممتدة بين الاردن وسوريا والعراق، والتي بنوها كعنجر البقاعية على شكل قلعة وحصن منيعين. نالت شهرتها من كونها المدينة الاموية الوحيدة في لبنان الشاهدة على عصر بني امية الذهبي الذين اسسوا اولى المدارس المعمارية في الفن الاسلامي، ومن المعركة التاريخية التي دارت رحاها على ارضها في الاول من تشرين الثاني 1623 وانتصر فيها الامير فخر الدين على الجيش العثماني بقيادة والي دمشق مصطفى باشا.

غنّتها فيروز منذ نصف قرن في مسرحية "ايام فخر الدين" في بعلبك، وصدحت من حنجرتها لتوقظ اغاني العز والعنفوان اللبناني مع الاخوين رحباني، وتبقي قضية الوطن حية في الوجدان. غنّتها فيروز في العام 1966، ولا يزال اللبنانيون يغيبونها عن ظهر قلب لان صوتها الساحر اخذهم الى ملحمة بطولة اميرهم المعني وصموده في الدفاع


المسؤول عن موقع عنجر المهندس رافي جيرجيان.


تيجان البوابة الرباعية.

القصر الصغير.


الواجهة الخارجية للقصر الكبير.

عن لبنان ومساهمته في بنائه واعماره، وما زالوا يرددون رائعتها في كل مناسبة وطنية، احياء لاحداث جرت في اوائل القرن السابع عشر في عنجر وتجلّت فيها الروح الوطنية.

عنجر الاموية شمخت بمساعدة عدد من المهندسين والحرفيين المهرة من البيزنطيين والسوريين الذين اكتسبوا فنون العمارة والزخرفة، دمرها الصراع على الخلافة في العام 744 على يد الخليفة مروان الثاني الذي انتصر على منازعه ابراهيم بن الوليد في معركة جرت على مقربة منها، ما ادى الى تدمير اجزاء كبيرة منها حتى تحولت الى اطلال، وظلت منسية على مدى مئات السنين الى ان قامت المديرية العامة للاثار بين العامين 1953 و1957 بحفريات واعمال تنقيب لكشف كنوزها الاثرية التي كانت مطمورة تحت الردم، في اشراف المدير العام للاثار موريس شهاب والمهندس هاروتيون كالايان، فاعلنتها منظمة الاونيسكو في العام 1984 موقعا من مواقع التراث العالمي.

تتجول في ارجاء الموقع فتشتم عبق التاريخ من قناطره واعمدته وجدرانه ونسيجه العمراني المدني المتناسق، الممتد على شكل مسطح مستطيل يبلغ طوله 374 مترا وعرضه 308 امتار، وتحوي واجهته الخارجية 36 برجا نصف دائرية فيما اضيفت الى زواياه اربعة ابراج دائرية، تنتشر على جانبي الطريق الرئيسي من مدخل الموقع صعودا 9 قناطر ثلاثية ورباعية، وتحف، ومحلات تجارية، ويشكل إلتقاء بطريقين في وسط المدينة ما يعرف في تاريخ العمارة بـ"البوابة الرباعية" ذات الاعمدة الاربعة المزدانة بتيجان وكتابات. ويلاحظ الزائر ان طرقات تلك المدينة تخترقها شبكة الصرف الصحي المجهزة بفتحات ظاهرة لمراقبتها وتنظيفها.

يقسم الطريقان الرئيسان المنطقة الغربية من المدينة الى احياء سكنية، بينما تتميز المنطقة الجنوبية الغربية ببناء ضخم هو القصر الكبير المبني من الحجر المنحوت وطين التراب الاحمر المحروق، الذي لم يبق منه الا صحنه الداخلي الذي تحوطه غرف عدة الى بوابتين من جهتيه الغربية والشرقية، وبعض قناطره التي تعلو عن محيطه المعماري، ونقش على احد اعمدته رسم صليب وكتابة يونانية تحمل اسم كنيسة سانت ماريا ويرجح ان يكون قد نقل من بقايا الابنية البيزنطية.

يتصل هذا القصر من جهته الشمالية بالجامع الذي لم يبق منه ايضا سوى آثار قاعة الصلاة، والبئر التي كانت توضع فيها ماء الوضوء للمصلين. ◄

◄ اضافة الى القاعدة الحجرية للمقصورة التي تميز الجوامع الاسلامية، وكان الامويون اول من استخدمها بهدف الفصل بين الخليفة وبين رعاياه.

في الجهة الشمالية للموقع اربعة قصور متشابهة بتصاميمها، منها اساسات لثلاثة قصور لم تكن الاشغال فيها قد انجزت عند تدمير المدينة، باستثناء المبنى المعروف بالقصر الصغير الذي اكتمل بنيانه، ولا تزال قناطره ظاهرة للعيان. اما المنطقة الشمالية الشرقية فتوجد فيها الحمامات التي تقع على بعد امتار من المدخل، وتشكل مستطيلا طوله 30 مترا وعرضه 18 مترا، وتتألف من غرف مشيدة بالحجر كباقي المباني في المدينة، منها صالات استقبال وغرف تدفئة ومتوسطة الحرارة وحارة، ويحوي بعضها على مقعد. اضافة الى غرف للمواقد وتخزين مواد الحرق واحواض للاستحمام بالمياه الساخنة، وكانت ارضية الغرف حافلة بلوحات من الفسيفساء بقي منها اجزاء متناثرة وغالب تعبيراتها مقتبسة من الفنون الاغريقية والبيزنطية. هذه الحمامات التي تم بناؤها في الفترة الاموية تعكس ايضا تقاليد الحمامات البيزنطية، ولاسيما لجهة الشروط الواجب اتباعها، لكي لا يتأثر المستحمون بتقلبات الجو المفاجئ.

اما المنطقة الغربية للمدينة الاموية فهي مختلفة كليا. إذ يقسم الطريق الى حيين، كل منهما مقسم الى شارعين، بالاضافة الى المناطق السكنية ومجموعات من المساكن مؤلفة من 2 او 4 او 6 منازل مبنية بشكل متواز. يظهر ان المدينة شهدت تعديلات في البناء مع وجود نشاطات صناعية تعود للعصور الوسطى من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر، كمعاصر موجودة في القصر الصغير واقسام اخرى، وكنيسة تقع على اساسات منزلين يرجح انها تعود الى الحقبة الصليبية.

فرضت التقاليد المعمارية الرومانية والبيزنطية هويتها في الموقع الاثري لعنجر من خلال اعادة استعمال عناصرها الفنية المعمارية في الاعمدة والتيجان والافاريز التي امتزجت بصفات مميزة مستمدة من العمارة الاسلامية، فحمل الطراز الاموي اسلوبا معماريا خاصا تميز بانماط مختلفة عما كانت سائدة قبلها، وتجسدت في رسم الزخارف الفسيفسائية والاشكال الدائرية الهندسية اللتين شكلتا ازدهارا للفن العربي الاسلامي، وتميزت اعمدته بانها ليست ضخمة، وجاءت رشيقة تعلوها تيجان في غاية التناسق والانسجام، مخالفة الاعمدة اليونانية والرومانية الضخمة الحجم والعالية الارتفاع.

برع الامويون في استخدام الاسلوب البيزنطي في بناء مدينتهم، معتمدين على وضع مداميك الفخار فوق مداميك الاحجار لاعطاء الجدران مناعة في مواجهة الزلازل، ما جعل القلعة بقصورها ومسجدها وسوقها وحماماتها البخارية وباحتها الخارجية واحدة من روائع التصميم الهندسي خلال الحقبة الزاهرة من تاريخ الحضارة العربية. لكن هذا الموقع لم يكن الوحيد بين الآثار الاموية الذي احتوى على آثار لا تنتمي الى الفترة الاسلامية، ومن الامثلة على ذلك قصر عمرة بالازرق في الاردن.

ورغم ان الحفريات الاثرية التي تناولت عنجر منذ الخمسينات، فان الموقع ما زال يحتفظ بالكثير من اسرار السلالة الاموية. اذ يؤكد المهندس المعماري في المديرية العامة للآثار المسؤول عن الموقع رافي جيرجيان في حوار مع "الامن العام" ان 10 في المئة فقط من آثار عنجر تم التنقيب عنها لغاية اليوم.

■ ماذا تتضمن اعمال الترميم الجارية في الموقع؟

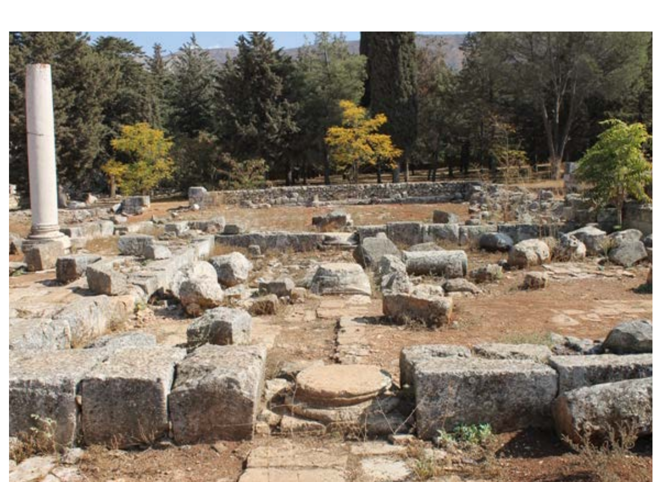
□ انطلق الاهتمام الجدي بالموقع بعد العام 2005، فقامت المديرية بتنظيفه من الاعشاب وتدعيم منشآته المتصدعة، ورممت في العام 2009 الفسيفساء التاريخية للحمامات بعد الحصول على هبة اميركية بقيمة 55 الف دولار، وعملت على تأهيل البنى التحتية لقنوات تصريف المياه الباردة والفاترة والساخنة في تلك الحمامات البخارية، وكذلك الممرات الفخارية للبخار الممتدة تحت ارضيتها السفلية صعودا الى جدرانها بهدف حمايتها من الاضرار الناتجة من الجليد والرطوبة. وقد أولينا هذه البنى اهمية بالغة باعتبارها الوحيدة في العالم بين كل آثار الحضارة الاموية ما زالت قائمة. حاليا نقوم بترميم القصر الصغير بتمويل قيمته مئة الف دولار من السفارة الكورية. ولاحقا سنرمم القصر الكبير من موازنة المديرية العامة للاثار، ليصار بعد ذلك الى ترميم موقع الجامع.

■ هل كشفت اعمال الترميم عن المزيد من اسرار المدينة الاموية؟

□ لاحظنا في اثناء الترميم في القصر الصغير الذي ازدان بأهم اعمال الزخرفة، وجود معصرة تعود الى القرون الوسطى، واجران كبيرة في الغرف، ونقوش للصلبان على الجدران، هذه كلها معطيات جديدة تشير الى ان المدينة الاموية اعيد استخدامها في فترات لاحقة لا سيما خلال حقبة الصليبيين، وهذا ينسحب ايضا على ما نشاهده من معالم اثرية واضحة لكنيسة بنيت في تلك الحقبة ايضا في الجهة المقابلة للجامع. كما عثرنا داخل القصر الصغير على حمامات بخارية خاصة به، ما يؤشر الى ان هذا القصر قد خصص ليكون مسكنا للاميرات. لكن اللافت ان التيجان التي تزين بعض الاعمدة ليست كلها بيزنطية، بل هي باكورة اعمال الامويين لاننا نجد ما يماثلها في العمارة الاموية التي شيّدت بعد 300 سنة في الاندلس، وهذا ينطوي على معطيات مهمة في تأسيس فن العمارة الاموية انطلاقا من الفنون المعمارية الرومانية والبيزنطية، وخصوصا في زخرفة التيجان التي نجد فيها للمرة الاولى نقش يجسد رسم الخليفة وهو يمتشق رمحه ومزدان باشارات السلطة، كذلك هناك نقش على مدخل القصر الكبير يمثل شخص يمتطي حصانه وآخر على الجمل، هذا النوع من النقوش لم يكن معهودا في زمن البيزنطيين ولا قبلهم.

■ ما هي الميزات التي يمكن استخلاصها من خلال المعطيات المكتشفة؟

□ ميزة الامويين هي انفتاحهم ومزجهم بين الفنون الغربية والشرقية، حتى انهم استعانوا بالبنائين من بيزنطية وارمينيا والعراق ومصر وغيرها، لاستخراج الحجارة اللازمة لمشروعهم من مقلع كامد اللوز بحسب الكتابات التي عثر عليها، كما وانهم جعلوا من عملية بناء مدينتهم مختبرا لكل الانماط الهندسية المعمارية منذ ايام الرومان لغاية العصر البيزنطي حتى اصبح لهم طرازهم الخاص، وباتت عنجر المعلم الاموي الوحيد في لبنان، اذا استثنينا مسجد بعلبك الاثري الكبير الذي بني في الفترة عينها، والمعلم الاموي الوحيد في العالم الذي يحافظ على عناصره الهندسية المعمارية والمدنية وبناه التحتية بما فيها عاصمتهم دمشق والاندلس. اختص محراب الجامع الذي يدل على اتجاه القبلة بباب يتيح للخليفة الانتقال من القصر الى الجامع بطريقة مباشرة للمشاركة بالصلاة، وهذا امر غير مألوف في تشييد الجوامع الاسلامية، لان باب الجامع يكون عادة من الجهة الخلفية للمسجد ولا يجوز ان يكون من جهة المحراب حتى يتمكن المصلي من اداء واجبه بخشوع من دون ان يعكر احد خلوه مع الله.




آثار أطلال الكنيسة.

آثار الجامع.



الزخرفة في القصر الكبير.



قناطر على جانبي طريق المدينة.



ما تبقى من القصور الأربعة.